خطاب النقد ونقد النقد في الثقافة العربية: سياقات النشأة وعوامل التحول

Criticism of Criticism Speech in Arab Culture Origins Contexts and Transformation Factors

د / عماد شارف[1]* ، د / داودي صورية[2]

Dr . Charef imed [1], Dr. daoudi soraya [2]

مخبر الدراسات الأدبية واللغوية

جامعة محمد الشريف مساعدية – سوق أهراس (الجزائر)..

Mohamed-Cherif Messaadia University - Souk Ahras

imed.charef@univ-soukahras.dz[1] / s.daoudi@univ-soukahras.dz[2]

تاريخ الإرسال:2020/11/09	تاريخ القبول:2021/07/02	تاريخ النشر : 2021/12/25

ملخص البحث

تحاول هذه الدراسة البحث في كيفيّات تحديد مفهوم خاص للنَّقد، باعتبار أن كل مرحلة تبني مفهوما خاصا له في ضوء الإطار المعرفي الذي يسود مرحلة تاريخيّة ما، وعليه سيأخذ مصطَلَح النَّقد عدة محمولات تنزاح بين كونه معرفة، أو هو صياغة جديدة للنّص، أو هو فهم للنّصوص الإبداعيّة. ولما كان الفرق جليًا وواضحاً بين النَّقد ونقد النَّقد باعتبار الأول خطاب موضوعه الأعمال الأدبيّة، والثاني خطاب موضوعه هذا الخطاب الأخير. فإن هذا الوضوح سيزول تدريجياً إذا ما طرحنا سؤال المنهج في هذين الحقلين، فهل يعتمد الحقلان على المناهج ذاتها في المقاربة والتّحليل ويتوسلان المفاهيم والمصطَلَحات والآليّات ذاتها؟ كما تطرح الدراسة أسئلة حول سياقات نشوء حقل نقد النقد والأدوات الإجرائية التي يتوسّل بها في مقاربة موضوعه وعوامل تطوره معرفيا ومنهجيا.

الكلمات المفتاح : خطاب نقد النقد . تنظير النقد الأدبي. النظرية النقدية.

Abstract :

This study attempts to research how to define a concept of criticism, considering that each stage adopts a special concept of criticism in the light of the cognitive framework that prevails at a historical stage, and therefore the term criticism will take several moves between the fact that criticism is knowledge, or is a new formulation of the text, or an understanding of creative texts. Since the difference between criticism and criticism is clear, considering the first is a discourse of literary works, and the second is the subject of this last discourse. The study also raises questions about the contexts of the emergence of the cash field and its factors of its development cognitively and systematically.

Keywords: A speech of criticism. Literary criticism theorem. Critical theory.

* عماد شارف imed.charef@univ-soukahras.dz

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مقدمة

إنَّ تحديد المفاهيم والمصطَلَحات, أمرٌ منهجيٌّ في البحوث العلميَّة ولكن كثيرًا ما يصبح محلّ خلاف بين الدَّارسين، ومن ثمَّة فإن مفهوم النَّقد، من منطلق لغويّ قديم يؤول مباشرة إلى فكرة التمييز بين الجيّد والرديء ومحاولة الحكم على العمل الأدبيّ. مع ضرورة امتلاك ذائقة مدربة بالجودة والرداءة أو بما بقع بينهما .ولكن لا يمكن اعتبار ذلك المفهوم للنَّقد هو الثّابت دائما، ذلك لأن الذّائقة الأدبيّة خاضعة هي الأخرى للتطوّر، وهذا ينجم عنه حتما تغيير في مفهوم النَّقد، ليبتعد شيئًا فشيئًا عن تلك التحديدات التي أعطها له ابن سلام وابن قتيبة وقدامة بن جعفر وغيرهم، وبذلك يمكن أن نلاحظ بسهولة أن مفهوم النَّقد يتحدد من خلال المرحلة التاريخيّة التي يظهر فيها مجموعة من النقَّاد المرتبطين بمنهج أو مجموعة من المناهج العلميَّة.

تحاول كل مرحلة أن تبني مفهوما خاصا للنَّقد في ضوء الإطار المعرفي الذي يسود مرحلة تاريخيّة ما، وعليه سيأخذ مصطَلَح النَّقد عدة محمولات تنزاح بين كون النَّقد هو معرفة، أو هو صياغة جديدة للنّص، أو هو فهم للنّصوص الإبداعيّة. هذا التشعّب في المفهوم له ما يفسّره في نقدنا القديم والذي حاول نقاده الاستفادة من المنطق ،و علم الأخلاق ،وعلوم اللُّغة، والتّاريخ والبلاغة. ويبدُو أن هذا الأمر يُعطي مشروعيّة _في نظرنا_ لنقَّادنا المعاصرين بأن يفيدوا من المناهج الحديثة سواء كانت لسانيّة ،أو نصانيّة أو سياقيّة، أو حتى من العلوم البحتة كالطبيعيّات والرياضيّات وغيرها.

إن السُّؤال الملح في هذا السِّياق لا يتعلق بتحديد مفهوم مثاليّ أو كامل للنَّقد، بل يتعلق بكيفيّة تحديد مفهوم النَّقد، أو كيف يمكن أن نحدد مفهوما خاصا للنَّقد؟ وهل يمكن التوافق على مصطَلَح محدَّد للنَّقد؟ أم أن ذلك سيستعصى علينا ليظل مفتوحا أمام الاجتهادات وأمام اختلافات وجهات النَّظر؟

1 - خِطَابُ النَّقد ووَظَائِفُهُ

1-1 -مفهوم النَّقد الأدبيّ

تحدّد موسوعة لالاند الفلسفيّة النَّقد، بأنّه:« فحص مبدأ أو ظاهرة، للحكم عليه أو عليها حكما تقويميّا، تقديريّا، ثمَّة نقد فنّي (جمالي) ونقد الحقيقة (منطقي)... بهذا المعنَى يطلق العقل النَّقدي على الفكر الذي لا يأخذ بأيّ إقرار دون التّساؤل أوّلا عن قيمة هذا الإقرار سواء من حيث مضمونه (نقد داخلي) أومن حيث أصله (نقد خارجي)»[1]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إنّ مجمل المفاهيم المقدمة لمصطَلَح "نقد" شديدة الارتباط بالمستويات المعرفيّة للنقَّاد وبمنطلقاتهم الفكريّة، واتِّجاهاتهم الفنِّية، ومن ثمَّة فهي قضية إشكالية أي تحمل في ذاتها جدلا ونقاشا، لاسيما إذا سلمنا الآن النَّقد المعاصر ابتعد عن كونه ذلك الفن الذي يرتبط وجوده بوجود الآخر . الأدب . وأصبح أكثر استقلالية وميلاً نحو الاتصال بأنواع المعارف الإنسَانيَّة الأخرى ولكنّه يبقى دائم الاتصال بخصوصيات الأدب .

ينظر الدُّكتور إحسان عبَّاس إلى النَّقد على أنه «استعمال منظّم للتّقنيّات غير الأدبيّة ولضروب المعرفة _غير الأدبيّة أيضا_ في سبيل الحصول على بصيرة نافذة في الأدب»[2] هذه النَّظرة تدمج حقولا معرفيّة متباينة لعلوم مختلفة، تدخل ضمن علاقات التبادل، لتمهد لظهور نقد شامل، وتبقى مفاهيمه ومناهجه وأدواته الإجرائية من ذلك التَّداخل بين العلوم والمعارف.

أمَّا النَّاقِد مُحمَّد مندور فيذهب إلى القول بأنَّ « النَّقد الأدبيّ في أدق معانيه هو فنُّ دِراسَة الأساليب وتمييزها, وذلك على أن نفهم لفظة أسلوب بمعناها الواسع, فليس المقصود بذلك طرق الأداء اللغويّ فحسب، بل المقصود منحى الكاتب العام وطريقته في التأليف والتعبير والتفكير، والإحساس على السواء بحيث إذا قلنا إن كل كاتب أسلوبه يكون معنى الأسلوب كل هذه العناصر التي ذكرناها»[3].

إنّ هذا التّعريف محصور في الجوانب التَّطبيقية ولا يتعداه إلى ما هو تنظيريٌّ، والنَّقد هو" فنُّ دِراسَة الأساليب وتمييزها " ومن ثمَّة يكون النَّاقِد أقرب إلى الأديب لاعتماده الذوق ركيزة في فهم العمل الأدبيّ، مما يتطلب توظيفا لخبرة النَّاقِد وثقافته ليجد لنقده عنصر الإقناع والتأثير، وهذا يبتعد بالنَّقد عن جانبه التنظيريٌّ الذي يجعله يقترب من دائرة العلوم بفضل تعدد مناهج مقاربة النّصوص .

إنَّ القول بأن النَّقد الأدبيّ ينخرط في مختلف مجالات العلوم , يجعلنا نحذر من كونه علم قد يتماهى معها، ويهتك الحجب الفاصلة والحدود بينه وبين باقي العلوم، يَقولُ الدُّكتور محمود أمين العالم في تعريف يبدُو أكثر شمولية للنَّقد« هو اكتشاف وتحديد لشروط وقوانين الظواهر التعبيرية المختلفة وتفسيرها وتقيمها، وليس مجرد تقصي ودحض وإدانة، وهو كشف وتحديد وتفسير وتقسيم يهدف إلى إضاءة وتعميق الوعي والتذوق، وتجاوز القصور تجاوزًا إبداعياً »[4] يضم هذا التعريف عناصر يشترك فيها النقَّاد ويتفقون حولها وهي وظائف النَّقد ومهامه، لأنهم كثيرًا ما يتفقون في كيفيات أدائها وطرق استخدامها.

إنَّ فهما أعمق لدور النَّقد في مقاربة النّصوص الأدبيّة جعل "رولان بارت"(Roland Barthes) يذهب إلى القول بأنّ النَّقد هو« قراءة عميقة (أو هو أيضا قراءة جانبيّة) وهو يكشف في

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العمل معقولا معيّنا، وإنه في هذا _و الحق يقال _ ليفكك تأويلا ويشارك فيه، ومع ذلك فإن ما يهتك النَّقد ستره لا يمكن أن يكون هو المعنَى، لأن المعنَى يتراجع دون توقف حتى يصل إلى فراغ الذَّات. ولقد يكون فقط سلسلة من الرُّموز والعلاقات المتجانسة; إن المعنَى الذي يُعطيه النَّقد للعمل_ وله الحق في ذلك_ ليس في نهاية الأمر سوى ازدهار للرموز التي تصنع العمل»[5] إن بارت اخترق جهات معرفيّة تشكك في قدرات النَّقد الجديد على تمييز الرؤى المحتقرة له.

ويتمسّك بارت بتعدديّة المعنَى ويفرق بشكل حاذف بين المتعاليات الثّلاثة: نقد / قراءة/ علم، فهناك إذن ; « العلم الذي يهتم بالأشكال وحقله هو اللسانيات/ علم الخطاب/. والنَّقد الذي يتوسّط العلم والقراءة، وهو لغة ثانية تزييغية مائلة، بوصفها ممارسة ذاتية شبه هذيانية واثقة من مخزونها، بل قراءة غائرة في كنة النَّصّ بمحمولاته العلاماتيّة للقول، ومُنتجة لرمزية أخرى مع نبرة غالبا ما تكون مخالفة. والقراءة التي هي فحص للنّص بالصورة التي تنتج تفاعلا بين القارئ والنَّصّ، للبحث عما لا يوجد في ظاهره بما تليق به ممارسة دالة هي الكتابة, وهي عاشقة بسبب شهوية المعنَى»[6]

ومن ثمَّة فالنَّقد عند بارت يتحدد في كونه لغة واصفة (Métalangage) وخطاب موضوعه الأدب، يَقولُ بارت متحدثا عن هدف النَّقد في أنه « لا يتعامل مع العالم,بل مع الصِّياغات اللغويّة التي قام بها آخرون لهذا العالم, إنه خطاب على خطاب (discours sur un discours) إنه لغة ثانية أو لغة واصفة»[7]

و يحدد عبد السَّلام المسّدي النَّقد بقوله« النَّقد هو تحوّل كيفي من مجال الخلق الفنِّي إلى محاولة إحكامه بأدوات ذهنيّة تفضي إلى السّيطرة على الظَّاهرة الإبداعيّة بواسطة العقل. فالنَّقد معرفة. وهو معرفة من طبيعة خاصّة: إذا نظرت إليه من زاوية الفنّ قلت إنّه علم الفنّ القولي، وإذا نظرت إليه من زاوية اللُّغة قلت إنّه علم القول الفنِّي. ولا يغيّر ذلك شيئًا في أنّه علم للأدب، له مقاييسه الخاصّة، وله مناهجه التي يتوسّل بها أصحابه، كما له منظومته النّوعيّة من المفاهيم والمصطَلَحات»[8]. إن هذا التعريف يركز على فكرة انتماء النَّقد إلى حقول العلوم والمعارف الأخرى، مع احتفاظه بكونه علم الفنّ القولي أو اعتباره علم القول الفنِّي، وطالما سلمنا بأنه في الحالتين علم كما أكَّد المسّدي على أن معقولية الخطاب النَّقدي وإسناده إلى المقولات العقليّة، بما يخلق مساحة بينه وبين موضوعه تفضي إلى ضمان الموضوعية في الحكم النَّقدي.

2-1 -وَظائِفُ النَّقد الأَدَبيِّ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تشتمل التعاريف المتنوعة السابقة عملية النَّقد، حيث سعى أصحابها .من ورائها إلى تحديد دلالة مصطَلَح النَّقد الأدبيّ، ولكنّهم سرعان ما يفَصْلون تعريف النَّقد بوظائفه تعريفا يحدد تلك الوظائف ويفَصْل بَعضها عن بَعض، رغم تداخلها الحتمي. فيَقولُون أنّ النَّقد تفسير وتقويم وتوجيه، ويتفاوت الاهتمام بإحدى هذه الصفات الثّلاث بتمييز ما نسميه بالدِراسَة الأدبيّة أو التأريخ للأدب، عما نسميه النَّقد الأدبيّ بمعناه الفنِّي، فالدِّراسَة الأدبيّة والتأريخ للأدب يركزان الاهتمام على الناحية التَّفسيريَّة، بينما يركز النَّقد على التقويم والتوجيه ويُعطيها أهميّة مساوية للتفسير. وعليه فالنَّقد فعاليّة فكريَّة قوامها «الشَّرح والتَّفسير والمقارنة وإصدار الأحكام وعليه فهو يتوسّط فعاليّتي الإبداع الأدبيّ والتّذوق»[9].

يحدد الدُّكتور مُحمَّد مصايف مراحل العمليّة النَّقديَّة_ وذلك انطلاقا من البحث عن المعنَى الاجتماعيّ للعمل الأدبيّ وربطه بسياقاته الخارجيّة _ يقوله« هي مراحل الدِراسَة والتَّفسير والتّقويم، وكل مرحلة من هذه المراحل لا يستغني عنها الأدب بحال»[10]حيث تتحقق الدِراسَة في نظره من خلال النَّظرة في الاتِّجاه العام الذي ألّف فيه العمل الأدبيّ على اعتبار أن « الاتِّجاه يعبر عن وجهة نظر الأديب، أو عن موقفه من الحياة »[11] والواضح أن تحديد موقف أو اتِّجاه معين غير متاح إلا بعد قراءة وفهم عميقين للعمل الأدبيّ.

هذا المعنَى الخاص لمصطَلَح "دِراسَة" يتماشى مع موقف النَّاقِد من وظيفة التَّفسير والتي يحدد مهمّتها في« محاولة النَّاقِد الاستدلال بالنّصوص وضم الجزئيات بَعضها إلى بَعض، على صحة الاستنتاج الذي توصل إليه في المرحلة الأولى »[12] ويبدُو أن غاية النَّقد عنده تنحصر في تقسيم الأعمال الأدبيّة و تصنيفها من اتِّجاهات محدَّدة.

يبدُو اتفاق النقَّاد واضحا أثناء حديثهم عن هاتين الوظيفتين، حيث نجد عبد السَّلام المسِّدي يحدد بدوره ثلاثة مهمّات للنَّقد تتمايز بحسب غايات القراءة النَّقديَّة يَقولُ « فإذا حاولنا رسم معالم هذا الدّور الذي يؤدّيه ناقد الأدب أمكننا أن نجلو له ثلاث وظائف بارزة، تتميّز كلّ واحدة منها عن الوظيفتين الأخريين تبعا لمضمون ما يَقولُه النَّاقِد من ناحية، وتبعا لصنف القراء الَّذين يتّجه إليهم بما يكتبه عن الأدب من ناحية أخرى»[13]

فالوَظِيفَة الأولى يطلق عليها المسِّدي الوَظِيفَة التثقيفيَّة « وفيها يتّجه الخطاب النَّقدي إلى القارئ متناولا العمل الإبداعي بالشَّرح والتّحليل والتّقويم، ولعلّ ما يستدعي هذه المهمَّة ما تتميّز به لغة الأدب

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من خصائص نوعيّة، تتطلّب تدخّل النَّاقِد لشرح ما غمض من تراكيب، وإماطة اللّثام عمّا توارى من إيحاءات، وبيان ما انحجب من تضمينات اللُّغة عن إدراك قرّاء الأدب»[14]

إنَّ مهمَّة النَّاقِد في هذه المرحلة تتجاوز الشَّرح والتّحليل، لتصل إلى مساعدة القارئ على إدراك خفايا النّصوص وتوجيه ذوقه نحو أكثر من مواطن الإبداع الفنِّي كثافة، وهو ما يذهب إليه حُسين مروة الذي يرى أن« أول ما تعنيه وظيفة النَّقد تثقيف القارئ بإعانته على فهم الأعمال الأدبيّة، وكشف المغلق من مضامينها، وإدخاله إلى مواطن أسرارها الجماليّة، وإرهاق ذوقه وحسه الجماليّ، وإغناء وجدانه ووعيه بالقدرة على استيطان التَّجارب والأفكار، والدّلالات الاجتماعيّة، والمواقف الإنسَانيَّة التي يقفها الشَّاعر أو الكاتب خلال العمل الفنِّي تجاه قضايا عصره أو وطنه أو مجتمعه»[15]و التَّفسير غالبا ما يكون «للعمل المنقود في ذاته لاستجلاء وإيضاح مصادره وأهدافه وخصائصه الفنِّية»[16], وكذا الظواهر والاتِّجاهات والخصائص الفكريّة والفنِّية التي يتَّسِم بها ذلك الأدب ،من ناحية علاقاته بالواقع الفكريّ وبقضايا عصره.

أمَّا الوَظِيفَة الثّانية وهي التقويم فيبدُو أن بَعض النُّقَّاد يميلون إلى استبدالها بمصطَلَح "توجيه "مع ربط عملية التقويم بالحكم، وعليه فالمسّدي يوصف الوَظِيفَة الثّانية من وظائف النَّقد بالوَظِيفَة التوجيهية وهي مستقلة كما يرى . تمام الاستقلال عن سابقتها وفيها« يتجه النَّاقِد إلى المبدع صاحب النَّصّ إن كان مزامنا له، أو إلى نظراءه من المبدعين إن لم يُزامنه بحسب نمط الصِّياغة وجنسها»[17]

فالوَظِيفَة التوجيهية « تتحوّل بالعمليّة النَّقديَّة من حوار بين الأدب وقارئه إلى حوار بين ناقد الأدب ومبدعه. ولئن ساد الظنّ فيما مضى بأنّ هذه المحاورة تبوّئ النَّاقِد منزلة المرشد، إذ كأنّما تخوّل له حقّا في المناصرة أو المناقضة ليس لغيره من القرّاء، فإنّنا نحدّد هذه الوَظِيفَة بمهمَّة المساءلة، وهي مساءلة لا تنبع من موقع المحاسبة الفوقيّة بقدر ما تصدر عن هاجس الاستكشاف المتجدّد وحيرة الفكر النَّقدي»[18],

إنَّ هذه الوَظِيفَة تمكن النَّاقد من أن يسهم في تقديم رؤى استشرافيّة كفيلة أن تفتح أمام الأدباء آفاق غير مألوفة، وهنا قد يتكفل النَّاقد بإظهار ما في بَعض الأعمال الأدبيّة من أخطاء والتواءات ونتائج ضارّة، وكذا إظهار ما في بَعضها الآخر من مزايا واتِّجاهات سليمة واستهداف لمصلحة المجتمع , وعلى ذلك يكون غرض تلك المهمَّة إقالة عشرات الكتَّاب وتقويم أخطائهم وتبصرهم بمواضع أقدامهمّ ومغبة أعمالهم وإرشادهم إلى الطَّريق القويم وتوجيههم إلى الغايات السليمة. لكن المسّدي يؤكد على أن هذه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الوَظِيفَة لا تمنح النَّقد حق الوصاية على الأدب ذلك أنه« لا يمكن أن يصبح النَّقد موجها أو معلِّما يَقولُ للمبدعين اتجهوا هذا الاتِّجاه وعليكم أن تكتبوا فِيه»[19]

أمّا الوَظِيفَة الثّالثة التي يؤكد على أهميتها المسّدي فهي الوَظِيفَة المعرفيّة« وفيها يتناول النَّاقِد القول الأدبيّ بالدّرس محاورا من خلاله رفيقه النَّاقِد، فيشتركان بذلك عبر نصّ الأدب في إنتاج المعرفة النَّقديَّة، ولا يمكن لهذه المهمَّة أن تتأتّى إلاّ إذا تدرّع الدّارس بكلّ المعارف المحيطة بمبادئ النَّقد في أدقّ وشائجه»[20] إن هذه الوَظِيفَة تضمن للنَّقد سعيه نحو محاولة تحاشيه الإحساس بثانويته الهامشية ،و العمل على أن يتأمل نفسه من خلال الأدب« ليكفَّ النَّصّ الأدبيّ الفنِّي_ موضوع البحث والمحاورة_ عن أن يكون غاية في حد ذاته, أو مقصدا مستقلا بخصوصياته, كما يكف النَّقد عن أن يكون همه الرئيسيّ هو استبطان ذلك النَّصّ وإخراجه مخرج الوثيقة الفنِّية التي تنتظر شهادة لها أو عليها، فالوَظِيفَة المعرفيّة للناقد تخلق وضعا جديدا من التعامل مع الأدب لأن هموم النَّقد تتجمع بوصفه إسهاما في إنتاج المعرفة»[21]

إنَّ النَّقد في هذه المرحلة يسعى لبناء تقاطعات جادَّة، وشبكة من العلاقات الخارجيّة ليعاود الرجوع إلى داخله، محاولاً بناء منهج مقاربة واضح المعالم يَقولُ المسّدي « وأوّل ما تطوف به الوَظِيفَة المعرفيّة بحكم هذه المقاييس التي بسطنا هو موضوع المنهج في العمليّة النَّقديَّة، فما أضحى اليوم شائعاً هو أنّ النَّقد بعد أن كان في الماضي ينطلق من مسلّمات منهجيّة، ولا يهتمّ بالمجادلة عنها إلاّ من خلال ممارسة النّصوص ونقدها، أصبح اليوم مشروطاً بعمليّة التّأسيس المنهجي التي تستلزم تراكماً من التّنظير قبل مباشرة النَّصّ بالاستنطاق الإجرائيّ»[22]

إنَّ الفَصْل بين هذه الوظائف الثّلاث زمنيًا وعمليًا في العمليّة النَّقديَّة فَصْل نظريّ واهم، والتَّداخل بينها يبدُو ضرورة، ومحاولة خلق حدود فاصلة بينهما يبدُو مستحيلا, لأن التَّداخل بينها هو صنو بناء الكتابة النَّقديَّة يَقولُ المسّدي « هكذا يكون النَّاقِد وهو يؤدّي وظيفته الأولى شارحاً للأدب، ويكون في وظيفته الثّانية مؤرّخاً للأدب، وفي الثّالثة مؤسّسا للنّظريّة الجماليّة عامّة. ولئن لم يكن من المتعيّن على ناقد الأدب أنْ يتخصّص بالضّرورة في وجهة من وجهات النَّقد دون أخرى، ولا أنْ يخصّ ضربا معيّناً من الأدب بصنف متعيّن من النَّقد، فإنّ من حقّه ألاّ يمازج في خطابه النَّقدي الواحد بين مراتب الكتابة النَّقديَّة رغم ما في المسألة من رؤى متفاوتة»[23]

إن النَّظرة إلى النَّقد على أنه «رصد للعلاقة القائمة _بالفعل أو بالقوة _ بين منتج الأدب ومتعاطيه»[24] يجعلنا نقرّ بأن النَّاقِد هو ذلك الوسيط الفاعل بين المؤلّف والمتلقي ،ولعل هذا ما يجعل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

النَّاقِد «أقرب إلى وظيفة المعلم منها إلى شيء آخر، ولذلك اعتبر النَّاقِد مهذبا للذوق, وصاقلا للمدارك, وكاشفا لأسرار الفنّ»[25]

إنَّ حصر وظيفة النَّقد والنَّاقِد في مسألة التّقييم والحكم بالجودة والرداءة أصبح منظورا متجاوزًا وتقليديًا، ومن ثمَّة فالنَّقد حسب الدُّكتور حُسام الخطيب أصبح له مهمّتان أساسيتان:« المهمَّة الأولى هي القراءة المتفتحة للنّص, أي استخلاص أحسن وأفضل الإمكانات التي يوحي بها النَّصّ »[26]فكل مقارنة تتبنَّى زاوية محدَّدة تفضي إلى نتائج أكثر دِقَّة وأقرب إلى روح النَّصّ، والوَظِيفَة الثّانية هي الوَظِيفَة التنظيريَّة, والنَّظريَّة من نوع تأسيس المعايير الذوقية والمعايير الفهميّة المسبقة، إنها ليست وظيفة لاحقة للنّص بعد ولادته إنما هي وظيفة للنّص »[27] فالكتابة النَّقديَّة لها القدرة على رسم ملامح الخلق الأدبيّ مستقبلا، وتؤثِّر بشكل لافت في ولادة النّصوص, لذلك أصبح الأديب يعمل جاهدا لتكوين فكر نقدي واضح المعالم قبل تقديم إبداعه.

في هذا السّياق يرى الدُّكتور مُحمَّد لطفي اليوسفي أن شرط تشكّل الخطاب النَّقدي، متوقف على مدى قدرته على كشف أسرار النّصوص الإبداعيّة واستنطاقها، والوقوف على عناصر الشعرية وملامح الهوية فيها، فالنَّقد هو خلق خطاب متأسس على أن الخطاب النَّقدي مطالب بالنفاذ إلى أعماق النّصوص قصد تفكيكها وإعادة بناءها محتفظا بخصوصية هذه النّصوص، ومن ثمَّة فالعمليّة النَّقديَّة لا تقف عند الشَّرح والتّقييم, بل تتعداه إلى الوقوف عند الأسئلة المركزية التي يثيرها حضور النّصوص في ثقافة ما عبر مجمل تاريخها [28]

2-نقد النَّقد: المفهوم، النّشأة والتَّطوّر

إنَّ النَّقد الأدبيّ أصبح يطرح باستمرار قضيه الإنتاج والإشهار، فهل يكون النَّاقِد مستهلكا لنظريّات نقد جاهزة أم منتجا مساهما في إنتاج خطاب نفدي متكامل؟ والظاهر أن اتِّجاه النقَّاد في عصرنا أصبح أكثر جنوحا نحو التنظير منه للتطبيق، ومن ثمَّة فإن النَّقد أصبح يتأمل نفسه بنفسه ويستجليها حتى يعرف ماهيتها ووظيفتها والمنهج الذي يناسبها .

إنَّ النَّقد الآن يمر بإشكالية تعرف النفس والبحث عنها، ومع كل أطروحة يقدمها النَّقد في هذا المجال، فإنه يزيد من قوته ليتجاوز أزمته، وهذا ما يفسّر ظهور وانتشار ما يسمى بحقل نقد النَّقد،إنَّه خطاب حول خطاب ناجز أو هو كلام على كلام، يروم فحص وتفكيك طبيعة وأبنية الخطابات النَّقديَّة، قصد الكشف عن آليات اشتغال أنساقه وأنظمته.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إنَّ وجود الظَّاهرة أسبق من دراستها، لذا فإن نقد النَّقد يفترض تشكّلا سابقًا للنَّقد الأدبيّ، ولما كان الفرق جليًا وواضحاً بين النَّقد ونقد النَّقد باعتبار الأول خطاب موضوعه الأعمال الأدبيّة، والثاني خطاب موضوعه هذا الخطاب الأخير.النَّقد الأدبيّ . فإن هذا الوضوح سيزول تدريجياً إذا ما طرحنا سؤال المنهج في هذين الحقلين، فهل يعتمد الحقلان على المناهج ذاتها في المقاربة والتّحليل ويتوسلان المفاهيم والمصطَلَحات والآليَّات ذاتها؟

2-1-مفهـــوم نقــد النَّقد

تفتقر معظم ممارسات نقد النَّقد إلى وعي بمفهومه والتنظير بحدود مادته المعرفيّة يَقولُ المسّدي «ولئن كان شيء من كلّ هذا (يقصد شذرات نقد النَّقد) مبثوثاً بين طيّات النَّقد في الماضي فإنّ حصوله بضربٍ من الوعي الواضح، بل وبشيء من الوعي الحادّ أحيانا... هو الذي حوّل القضيّة إلى سمةٍ بارزةٍ من سمات الوضع المعرفي الرّاهن. ولأوّل مرّة يتبلور ضمن متصوّرات النَّظريَّة النَّقديَّة وبين جداول قاموسها الاصطلاحي مفهوم نقد النَّقد »[29] لذا فإن هذا المصطَلَح الذي تأخر ظهوره نسبياً، لم يرافقه عمل نظري كاف يفصح عن ماهيته ويؤكد سماته الخاصة.

لقد كانت تجليات مصطَلَح نقد النَّقد في مختلف الدِّراسات والممارسات الأدبيّة والنَّقديَّة التراثية القديمة، ولم تخرج إلى تكوين منظومة مصطَلَحية ومفاهيمية خاصة وواضحة بل هي حبيسة التطوُّرات الذهنيّة السَّاذجة .

يواصل النَّاقِد عبد السَّلام المسّدي تحديده لمفهوم حقل نقد النَّقد، إسنادا إلى وظائفه ومهامه فيَقولُ« فنقد النَّقد يستنهضك إلى التبصّر بما يكمن وراء الظَّاهرة الأدبيّة ووراء العمليّة النَّقديَّة في نفس الوقت من متشابكات يتعاون كلّ من الأدب والنَّقد على إخفائها، فهو بذلك يستحثّك أن تهتك الحجب والأستار فتنفذ بعين التبصّر وروح الاعتبار إلى حيث يغيب بصر الآخرين »[30]

رغم سعيه نحو فَصْل المصطَلَحين فَصْلا منهجياً. يبدُو المزج واضحاً والعمل مترابطاً عند المسّدي بين جهازين منفَصْلين عمليًا; جهاز وظيفته البحث عن مضمرات الظَّاهرة الأدبيّة، وجهاز يبحث في مضمرات العمليّة النَّقديَّة ،هذا المفهوم لا يوصّف حدودا واضحة المعالم بين نقد النَّقد والنَّقد. إن هذا الفَصْل بين المصطَلَحين سيكون أكثر نجاعة عند النَّاقِد مُحَمَّد الدَّغمُومي استنادًا إلى مهامه وطبيعته وموضوعاته يَقولُ« إنّه بناءٌ معرفيٌّ إجرائيٌّ وظيفيٌّ يعمل بإستراتيجيَّة واحدة وينتج معرفة تصبّ في مجرى المنهجيّات وتعمل بإستراتيجيَّة ليست أبدا إستراتيجيَّة التّنظير أو النَّظريَّة الأدبيّة أو النَّقد، وإنّما تستهدف

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من خلال معرفة طبيعة الممارسة النَّقديَّة (آليّاتها،غاياتها معرفتها) إلى أحد المرامي الآتية: كشف الخلل فيها تدعيم هذه الممارسة؛ تبرير هذه الممارسة؛ تحديد تشغيل الإجراءات في ممارسة منهج ما؛ فحص النَّظريّات النَّقديَّة والأدبيّة بما هي بناءات معرفيّة»(31)

يرى الدَّغمُومي أن الوعي بمفهوم نقد النَّقد لا يستقيم دون رصد إستراتيجيَّاته ووسائله الملائمة، وغاياته وموضوعه فيبتعد بذلك عن التَّماهي بممارسة النَّقد وتاريخ النَّقد والتعريف بتيارات النَّقد، ويبدُو هذا التعريف أشمل مما يسوقه لنا بَعض النقَّاد الَّذين يرون أن نقد النَّقد هو «خطاب يبحث في مبادئ النَّقد ولغته الاصطلاحية وآلياته الإجرائية وأدواته التّحليلية»(32)

ويعرف جابر عُصفُور نقد النَّقد _في غير موضع _ تعريفا أتسم بالتدرج في الرُّؤيا، ويرى أنه نشاط معرفي «ينصرف إلى مراجعة الأقوال النَّقديَّة، كاشفا عن سلامة مبادئها النَّظريَّة، وأدواتها التّحليلية، وإجراءاتها التَّفسيريَّة أو النَّقد الواصف (Metacritique) من حيث هو تأصيل معرفي للمقولات العقلية التي تنطوي عليها المفاهيم المنهجيَّة والعمليات الإجرائية للنَّقد»(33)

وهذا التعريف يتَّسِم بالإيجاز القاصر عن ضرورة تحديد المصطَلَح على أسس علميَّة ومنهجية دقيقة، فهو يحصر وظيفته في الكشف عن سلامة مبادئ الخطاب النَّقدي وفي مدى انسجام إجراءاته، هذا النزوع قد نجد له مسوغا بالنَّظر إلى تلك التطوُّرات التي شهدها الفكر النَّقدي العربي المتخبط في دوامة الحداثة وما بعد الحداثة ،وهي تطورات أسست معرفيا لذلك التّمييز بين النَّقد ونقد النَّقد.

يميز جابر عُصفُور في موضوع آخر بين النَّقد الشارح ونقد النَّقد واللُّغة النَّاقِدة، حيث يرى أن النَّقد الشارح« يقوم بأداء دور اللُّغة الشّارحة في مجال النَّقد الأدبيّ. والتّعريف الذائع للنَّقد الشّارح... هو أنّه "خطاب نقدي نظري عن طبيعة النَّقد وغاياته". وذلك تعريف يندرج في السِّياق العام لدلالات اللُّغة الشّارحة من حيث هي نظام ثان عن نظام أوّل من الخطاب. ويعني ذلك أنّ النَّقد الشّارح ليس سوى اللُّغة الشّارحة في مجالات النَّقد الأدبيّ، وأنّه يؤدّي دورها في حقله النّوعي الخاص، فهو إيّاها حين يلتفت النَّقد إلى نفسه فيغدو ضربا من التأمّل الذي يؤسّس فلسفة العلم بالموضوع»(34) في لفتة ذكيَّة يناظر النَّاقِد بين وظيفة النَّقد الشارح ووظيفة اللُّغة الشارحة في حقل النَّقد الأدبيّ، إن النَّقد الشارح جهازٌ مفاهيميٌّ تحليليٌّ ذات صبغة تنظيريَّة، بينما يجنح نقد النَّقد بصفته جهازا نقديا تحليليا أكثر نحو التطبيق، وهنا يكمن الفرق بين الجهازين. إنَّ التّمييز بين هذين المفهومين يبدُو سهلا لكنّه معقد في حقيقة الأمر،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حيث أن الممارسة النَّقديَّة يتماهى فيها المستويين إلى درجة أنه يصعب الفَصْل بينهما، لتصبح كلُّ المفاهيم متظافرة لتوصيف مفهوم واحد فقط وهو نقد النَّقد.

في هذا المعنَى يسعى النَّاقِد باقر جاسم مُحمَّد إلى محاولة تقسيم نقد النَّقد إلى قسمين هما: « نقد النَّقد النَّظري، وهو ذلك الفعل العلميّ الحواريّ الذي يناقش الأسس النَّظريَّة للاتِّجاهات النَّقديَّة السّائدة مشكّكا في جدواها أو في دقّتها ومبيّنا أوجه القصور فيها، ويوجّه هذا النّمط من نقد النَّقد هدفه النّهائي نحو اقتراح بدائل للمناهج والنَّظريّات النَّقديَّة السّائدة التي تكون موضع الدرس النَّقدي»[35] وهذا بالضَّبط هو ما قصده جابر عُصفُور في حديثه عن النَّقد الشارح. أما القسم الثاني من نقد النَّقد فهو ذلك الذي «يسلّط الضّوء على نصّ نقدي تطبيقي بعينه، فيقوم بعمليّة استقراء للنّص النَّقدي التَّطبيقي مبيّنا الجوانب الإيجابيّة فيه، ومؤشّرا أيضا جوانب الإخفاق بالارتباط مع النَّصّ الأدبيّ الذي درسه النَّصّ النَّقدي »[36]

إنَّ ما يبرر _في نظرنا _هذا التّقييم هو ذلك الجدل القائم والدائم حول جدوى المناهج والنَّظريات النَّقديَّة في مقاربة النّصوص الإبداعيّة، وما صاحبه من كمٍّ هائلٍ من مؤلفات التي حاولت أن تصف حالة الخطاب تارة، وتجاوز ذلك لتقديم حلول للمآزق التي يعانيها النَّقد تارة أخرى. وهو ما سيشكِّل فيما بعد حقل نقد النَّقد في مستواه النَّظري.

أما المستوى التَّطبيقي فله أيضا ما يبرره، وذلك حينما نتحدث عن مجموع القراءات النَّقديَّة المنتجة والتي يَتغَيَّ أصاحبها تقديم قراءة نقديَّة واضحة المعالم، متصدياً لآراء نقديَّة كتبت حول عمل أدبي ما, ومن ثمَّة ستكون له قراءتان قراءة للعمل الأدبيّ وقراءة لمجموع الخطابات النَّقديَّة التي كتبت حول هذا العمل، ويمكن بذلك اعتبار جل ما كتب من معارك نقديَّة حول نصوص بعينها من قبل النَّقد التَّطبيقي.

إنَّ الخوض في هذه المستويات المتشابكة من النَّقد جعل بَعض الباحثين يلحقون نقد النَّقد بحقل أشمل وهو نظرية النَّقد، حيث يكتسب نقد النَّقد شرعيَّته من « كون كلِّ مجتمع يتعايش ويستهلك ويحاور مجموعة من الخطابات ،لا ينظمها الائتلاف بقدر ما يخترقها الاختلاف والتعارض والتصارع، وكلُّ واحد من تلك الخطابات ينتج مفهومات ورموزًا ومرجعيات إيديولوجية لا يمكن أن تعرف استقرارا نهائياً»[37]

حينما ننعم النَّظر فيما سبق من تعريفات فسنجدها تتضمن عنصرين مهمّين: أولهما خطاب النَّقد في مستوياته التنظيريٌّة والتَّطبيقية، وثانيهما الأعمال الأدبيّة، وهذا يعني أن موضوع نقد النَّقد أوسع

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والنَّقد الأدبيّ نفسه يقع ضمن موضوعه، وهذا يقتضي بالضرورة عدم التَّماثل والتَّطابق في الموضوع والأهداف بين خطاب النَّقد وخطاب نقد النَّقد, مما يستدعي مناقشة إمكانية استقلال هذا الأخير.

2-2-خِطابُ نَقدِ النَّقد بِوَصفِهِ حَقلاً معرفيّاً مستقلاً

إنَّ حاجة النَّقد المستمرَّة إلى أن ينطوي خطابه على تأمل ضمني لذاته، تجعله في سعي مستمر نحو فحص مناهجه وتفكيك آلياته وشرح مصطَلَحاته، وتحديد مواطن ضعفه وهناته، وهذه المساعي لا يمكن تحقيقها من داخل النّصوص النَّقديَّة، بل هي بحث يختص به حقل نقد النَّقد يقول باقر جاسم « يستلزم هذا الفرق الجوهري بين موضوع النَّقد الأدبيّ وموضوع نقد النَّقد بالضرورة العلميَّة، العمل على تعزيز فكرة استقلال نقد النَّقد عن النَّقد الأدبيّ، كما يترتب على هذا الاختلاف في الموضوع أن يختلف نقد النَّقد عن النَّقد الأدبيّ في كل من آلياته ومصطَلَحا ته وأهدافه التي يتغيّاها، ويكتسب نقد النَّقد أهميَّته وحيويَّته من كونه مختلفاً في رؤيته ممَّا يتخذه موضوعا للمساءلة المعرفيّة.»(38)

إنَّ ما نقرأه من كتابات نقادنا المعاصرين ودراساتهم، السَّاعية نحو اعتبار نقد النَّقد علمًا مستقلاً بذاته، هي من قبيل الحرص على وضع حد فاصل بين منحنيين متباينين والحد من كل أشكال التَّداخل والتشابك الحاصلة بين النَّقد ونقد النَّقد، حيث ترى نجوى الرياحي أنّ« ثمَّة نزعة إلى اعتبار نقد النَّقد خلاء من الكيان الفكريّ والمفهوميّ تارة، ومدرجاً ضمن النَّقد تارةً أخرى»(39)وفي السِّياق نفسه يرى حميد لحميداني ضرورة الفَصْل بين الحقلين قائلا «إنَّ نقد النَّقد مرتبط بنقد الإبداع لا بالإبداع ذاته»(40) حيث أكَّد على ضرورة تخلِّي النَّاقِد على «تبني أحد مناهج النَّقد الأدبيّ، وأن يترك هذا الاختيار لنقَّاد الإبداع أنفسهم لأن المجال الحقيقي لبحثه الخاص ليس هو المعرفة وإنما معرفة المعرفة»(41)

رغم ذلك كلّه يبدُو النَّاقِد باقر جاسم غير راضٍ على تلك الدِّراسات التي كتبت في مجال نقد النَّقد، ويرى أنها « على كثرتها وتنوُّعها قد بقيت حتّى الآن تدور في فلك النَّقد الأدبيّ والردّ على مزاعمه النَّظريَّة والتَّطبيقية. ولم تنهض بما يجعل منها نظريّة مستقلّة في نقد النَّقد»(42) ومن ثمَّة فإن جل هذه الدِّراسات, لم تنجح في تأسيس بنية نظرية في نقد النَّقد, تساعد على استقلاله, ويرد ذلك إلى الأسباب التالية(43):

إنّ هذه الجهود تفتقر إلى الوعي بماهية نقد النَّقد وبوظيفته، وآلياته،حيث أنّها لم تكرّس جهداً نظريّاً وفلسفيّاً لتأصيل مفهوم نقد النَّقد، وتحديد أطره النَّظريَّة، بما يؤكّد تمايزه عن النَّقد الأدبيّ. كما أنّ هذه الجهود في نظره لا تقيم تمييزا بين صور ثلاث لنقد النَّقد: أولاها متعلّقة بالنَّظريَّة العامّة لنقد النَّقد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

باعتباره فرعاً معرفيّاً مستقلاً ومتميّزاً. والثّانية مرتبطة بالمقاربات التي تتناول النّظريّات والمناهج النّقديّة. أمّا الثّالثة فهي الخاصّة بنقد النّقد التّطبيقي الذي يُعنى بمناقشة نصوص نقديّة بعينها، ثمّ إنّها لم تعمل على بناء نسق مفاهيمي، ولم تؤسّس لترسانة مصطلَحيّة خاصّة بنقد النّقد.

2-3-نقد النّقد: النّشأة والتّطوّر

إنّ نقد النّقد باعتباره نشاطا فكريا نوعيا، قديم في مادته وممارساته والتنظير بحدود مادته المعرفيّة حديث في مصطلَحه، فقد نجد له كثيرا من الإرهاصات القديمة على مستوى مناظرات العرب القدامى ومساجلاتهم، من قضايا أدبية وبلاغية ونقديّة نظرية وتطبيقية، ولكنّها دراسات يعوزها الوعي بذاتها، ومجرد فحص بسيط لهذه الأدبيّات المتيسّرة لدينا يظهر أنّ وجود مصطلَح نقد النّقد_ المتأخر في الظهور نسبيا _ لم يرافقه عمل نظري جدي كاف يفصح عن ماهيته، ويؤكد سماته الخاصة« ولئن كان شيء من كلّ هذا (يقصد شذرات نقد النّقد) مبثوثاً بين طيّات النّقد في الماضي فإنّ حصوله بضربٍ من الوعي الواضح، بل وبشيء من الوعي الحادّ أحيانا... هو الذي حوّل القضيّة إلى سمةٍ بارزةٍ من سمات الوضع المعرفي الرّاهن. ولأوّل مرّة يتبلور ضمن متصوّرات النّظريّة النّقديّة وبين جداول قاموسها الاصطلاحي مفهوم نقد النّقد»[44]

ومن ثمّة ازدادت الحاجة إلى ضرورة الوعي بمصطلَح نقد النّقد والإحاطة بماهيته وحصر حدوده، وفَصْل التّداخل الحاصل بينه وبين الحقول المعرفيّة الأخرى، لاسيما النّقد الأدبيّ، الذي توسّعت وامتدت رقعة التّأويل فيه ليصبح موضوع نقد النّقد بوصفه كلاما في النّقد يمثل ضربا من القراءة المواجهة لقراءة أخرى، مواجهة لا يمكن ضبط مستويات الاختلاف فيها حدة ولطفا. ومن ثمّة أتساع التّأويل والشّرح والتّفسير، واختلاف التّصوّرات والخلفيات الفكريّة الآليات المنهجيّة، ليصبح نقد النّقد في الأخير حفرا في كيان النّصّ النّقدي.

إنّ نشأت نقد النّقد لصيقة ببواكير تشكّل الخطاب النّقدي نفسه، ذلك أن نشوء النّظريات وتباينها، نشأ عنه نوع من المراجعة والنّقد الضمنيّ أو الصريح بعضها البعض، ويمكن اعتبار السّبعينات بداية الوعي بخصوصية نقد النّقد مصطلَحا ومادة، والمفارقة هنا هي أن ظهور نقد النّقد متأخرة إذا ما قورن بمراحل نشأت نقد النّقد نفسه _ الأربعينيات_ وهذا ما يفسّر افتقارنا للدراسات الواعية بمفهومه مما تسبب في« تضخّم نقدي يقابله ضعف نقد النّقد »[45] أضف إلى ذلك مسألة أخرى مهمّة، وهي مدى وعي النّقد العربي بذاته ومدى حاجته إلى تحديد قواعده ومقولاته.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إنّ الخطاب النّقدي بعد كل جهوده الرامية إلى تثبيت أسسه ومنطلقاته النّظريَّة، وضبط والتصريح بآلياته المنهجيَّة قد« ارتدّ راجعاً بحصيلته الإجرائيّة على الأدب: يحاول ضبط مفهومه مدقّقا تعريفه ومتحسّسا رسم حدّه... ولكنّه وجد نفسه كذلك محمولا على مراجعة ذاته، يحدّدها من جديد في ضوء ما استخلص من مسيرته الطّويلة في معاشرة النّصوص... وهكذا كان النّقد يحاور الأدب ثمّ أصبح النّقد يحاور النّقد من خلال محاورته الأدب»[46]

إنَّ هذا الوعي الذّاتي للنّقد وانكبابه على نفسه من خلال عمليات التأمل والتقويم، وفحص بنياته ومناهجه للوصول إلى إعادة بناء للنظريات، يُفضي بالضرورة إلى استقلال الخطاب النّقدي بنفسه« بوصفه مؤسسة أو بنية من الممارسات الخاصة أو مجالا معرفيا متميزا بذاته»[47] ويمكن أن يتجلى هذا الوعي عبر تلك الكتابات الوفيرة التي« تتناول تاريخ النّقد الأدبيّ والدِّراسات التي تحاول تصنيف حاضر النّقد، إضافة إلى الجهود النّقديَّة التي تحاول تتبع المداخل والمناهج والمصطَلَحات، وأيضا تلك الوفرة الوفيرة من الدِّراسات التي تعمل على مراجعة النشاط النّقدي والمنضوية تحت مظلة نقد النّقد»[48].

إن النَّظر في مسألة اندماج النّقد ضمن المشروع الثّقافي العربيّ من زاوية انعكاساته الداخليَّة وركامه المعرفي، يجعلنا نقر بحقيقة الثورة التي عاشها النّقد، من خلال تباين منظومة المناهج السِّياقية والنَّصّانية، علاوة على كثرة المؤلّفات وتنوّعها، ممّا استدعى انبثاق حقل معرفيّ جديد أخذ على عاتقه، مراجعة مجموعة الإنجازات وفحص الآليات، والإشارة إلى مواطن الضعف والهناة وهذا ما منح الشرعية لخطاب نقد النّقد.

وترصد نجوى القسنطيني ثلاثة عوامل ساهمت في ظهور هذا الحقل والتقعيد لمفهومه[49]:تمثل العامل الأول في مجاراة النّقد للتجربة الإبداعيّة المتجددة المتحولة عن ثوابتها، أين كانت ضروب الإبداع أسبق من النّقد في الخروج عن قواعدها التأسيسية، فعجز النّقد عن مواكبتها واللحاق بها، وهذه من« الحالات التي يأخذ فيها الأدب زمام المبادرة فيجر النّقد جرا نحوه حتى يراجع مفاهيمه وصيغه »[50].

أمّا العامل الثّاني فيتمثّل في ظاهرة البحث عن النّموذج أو المثال، وهي ظاهرة تزامنت مع المشروع النهضوي والثّقافي العربيّ القاضي بضرورة تحديث بنيات الفكر وأنساقه، أين انفتح الخطاب النّقدي العربيّ على نظيره الغربيّ رغبة في تجديد أدواته وآليّاته واختبرت صلاحيّة هذه المناهج في الكشف عن خصوصية النّصّ الإبداعي العربي، وخضعت للمراجعة والتصحيح حيث كان ذلك شكلا من أشكال استدارة النَّصّ النّقدي على النَّصّ النّقدي .وتمثل العامل الثالث في ذلك التراكم المعرفي الذي وسم الحداثة، واتخذ في

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

النَّقد صورة تنويعات على المنهج تفرعت إلى تنويعات أخرى لحشد من النَّظريات والمصطَلَحات المتشعبة والمتباينة.

إنَّ محاورة الحداثي في خطاب نقد النَّقد يزامن« بداية وعي الأنا المحدثة في النَّقد الأدبيّ بذاتها وصعود المدرسة الشّكليّة الرّوسيّة، وبخاصّة ما صحب هذا الصّعود من توهّج الرّغبة في خلق علم أدبي مستقل، انطلاقا من الخصائص المحايثة للمادّة الأدبيّة»[51] إن هذا النوع من الوعي المزدوج والذي أسهم في ظهوره الشكلانيون الروس، يعيد صياغة العلاقة الجدلية بين ذات النَّقد وموضوعه، وقد نجم عن ذلك تبلور مفهوم الأدبيّة الذي يؤكد الحضور المتعدد لأشكال الوعي بالأدب، وفي الآن نفسه هي وعي الوعي بالأنساق الكبرى التي تنطوي عليها النّصوص .

وقد نجم عن البحث الشكلاني في شقه اللساني مصطَلَح اللُّغة الواصفة وهو خطاب اللُّغة عن اللُّغة نفسها، بالموازاة مع هذه النَّظرة ظهر مصطَلَح النَّقد الشارح يَقولُ جابر عُصفُور« في موازاة مصطَلَح اللُّغة الشّارحة (Métalangage)، ويلحّ كلاهما على الاستخدام النَّقدي بوصفهما دالّين على التفات النَّقد إلى نفسه، وعلى وعي لغته بحضورها المائز في إشاراتها الذَّاتيّة. ويوازي مصطَلَح "اللُّغة الشّارحة" مصطَلَح "النَّقد الشّارح" في دلالة الخصوص داخل سياقات النَّقد الأدبيّ»[52]

على أنَّ نشأة مصطَلَح نقد النَّقد لا تزال نشأة فتية تروم الانفلات_ قدر الإمكان _ من ذلك التَّماهي مع مظاهر الخطاب النَّقدي، لتحاول تطويقه وجعله موضوعا لنقد النَّقد، هذه الحركة الواعية هي في بحث دائم عن مفهوم وصيغ نظرية وإجرائية مناسبة، يتجسد من خلالها نقد النَّقد، ويستقل بنفسه علما قائما بذاته، وليس هذا سوى مشروع يستعصى تحقيقه لأن «مفهوم نقد النَّقد إلى يومنا هذا ما زال مفهوما يشيّد ويبنى »[53]

2-4-وظـائف نقـد النَّقد

لعل اشتغال الدَّارسين بتحديد مفهوم لنقد النَّقد، ورصدهم لطبيعة العلاقة بين هذا الأخير وبين النَّقد من جهة، والأدب من جهة ثانية، فرضت ضرورة النَّظر في وظائف نقد النَّقد التي ينبغي أن يؤديها، ومن ثمَّة يقتضي الأمر فرز هذه الوظائف وعرضها تاريخيا ونقديا توطئة لتحديد هذه الوظائف، وهو أمر سيلتزم البحث بالوقوف عليه منهجيا ومراعاته في كل عمل أو نص من النّصوص النَّقديَّة التي سيتولى دراستها .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لم يرد ذكر مصطَلَح وظائف لدى الباحثة نجوى القسنطيني بصفة صريحة، ولم تفرد لذلك نقاطا تحدد تلك الوظائف، ولم يبين السِّياق أنها تتحدث عن وظيفة لنقد النَّقد، تقول « فالنزعة إلى إنتاج معرفة بفلسفة هذا النَّقد وآلياته ومقاصده، هي مشغل نقد النَّقد ومحوره»(54) ومن ثمَّة فهي تتحدث عن النَّقد بصفته ملتقى الخطابات والمرجعيات ،تتفاعل وتتصادم لتذكر ما يعده الباحث إحدى وظائف نقد النَّقد، ويأتي في حديثها ما يؤكد عدم انتباهها إلى هذه الوَظِيفَة تقول:« أسهمت مجمل المعطيات السابقة في خلق حركية نقديَّة جدلية، دفعت البَعض إلى دِراسَة الظَّاهرة التّأويلية في ضوء علاقتها بالنَّصّ الإبداعي ومدى توفيقها في استنباط معاني النَّصّ وكشف خصوصياته، ودفعت البَعض الآخر إلى الاهتمام بجوهر الممارسة النَّقديَّة ذاتها، وتفكيك منطقها وفحص آلياتها وإجراءاتها، ومرجعيات أصحابها الفكريّة والنَّظريَّة والجماليّة وهو مسوغ لوجود خطاب نقدي نوعي وممنهج دائر على خطاب نقدي آخر»(55)

إنَّ جدل الحركية النَّقديَّة الذي أشارت إليه الباحثة، يجعلنا نطرح التساؤل حول حدود التَّداخل بين موضوعات النَّقد وموضوعات نقد النَّقد، هذه الحدود التي يؤطر معالمها جابر عُصفُور حينما يقول« إذا كان النَّقد الأدبيّ... هو كلّ العبارات الموجودة عن الأعمال الأدبيّة... فإنّ النَّقد الشّارح هو الخطاب الذي ينزل هذه العبارات منزلة الموضوع، ويضعها موضع المساءلة، مختبرا سلامتها المنطقيّة واتّساقها الفكريّ، ويصعد منها إلى الأنساق التي تحتويها، محلّلا أبعادها الوظيفيّة ودلالاتها التّأويليّة، مترجما الأنساق إلى مقولات أو مبادئ تصوّريّة تؤسّس حضور النَّظريَّة »(56)

يؤكد عُصفُور على أن خطاب نقد النَّقد يسعى إلى تأسيس حضور النَّظريَّة، من خلال قراءة وفحص كيفيات مقاربة النَّصّ في جزئياتها التفصيلية وتفكيك أبنيته ومراجعة منطلقاته، وفي الوقت نفسه يقف عند النّصوص الإبداعيّة، لا ليقدم قراءة بديلة لها، ولكن ليستكشف آليات ومناهج القراءة النَّقديَّة ومزالق هذه القراءة في مباشرة النّصوص.وبذلك فنقد النّقد يضطلع بمهمّتين، ويؤدّي وظيفتين أساسيّتين، ويقوم بقراءة مزدوجة الهدف؛ قراءة النّص النّقدي قراءة محاورة واختلاف، وفي الوقت نفسه ينجز قراءته الخاصّة للنّص الأدبي المنقود، وهذا ما يتّضح في نقد النّقد التّطبيقي، أو ما يصطلح عليه بالميتانقد التّطبيقي، إلى جانب أنّ الميتانقد النظري يعمل أيضا على العودة إلى النّصوص الأدبيّة بلمحات سريعة، لتدعيم ما يذهب إليه ناقد النّقد

وترد إشارة عابرة إلى وظائف نقد النَّقد عند مُحَمَّد الدَّغمُومي فنقد النَّقد «هو فعل تحقيق واختيار وإعادة تنظيم المادة النَّقديَّة، بعيدا عن أي ادعاء بممارسة النَّقد الأدبيّ، إنه يقوم فعلا بنقد آخر وصلته

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالأدب غير مباشرة»[57] لقد نسب الباحث إلى نقد النَّقد مهمَّة إعادة تنظيم المادة النَّقديَّة وهو ادعاء واهم، إذ ليس من مهمّات نقد النَّقد إجراء أي تعديل في النَّصّ النَّقدي أو الأدبيّ، بقدر ما هو « تأصيل معرفي للمقولات العقلية التي تنطوي عليها المفاهيم المنهجيَّة والعمليات الإجرائية للنَّقد»[58]

إنَّ اعتبار نقد النَّقد نشاطاً أبستمولوجياً ينعكس معه النَّقد على نفسه، جعل النَّاقِد جابر عُصفُور يقر بثلاثة وظائف أساسية لنقد النَّقد; تتصل الأولى بعمليات المراجعة الفاحصة التي يجريها نقد النَّقد على النَّقد التَّطبيقي، ابتداء من توصيفه وضبط مصطَلَحاته، والنَّظر في مدى انسجام إجراءاته العملية، وصولا إلى فحص مدى سلامة مبادئه وفرضيّاته الأساسية[59]

و تتعلق المهمَّة الثّانية بالبعد التَّفسيري «ذلك أنّ فعل الاستنطاق الذي يقوم به هذا النَّقد فعل تأويلي في جانب منه، فهو قراءة تبحث عن دلالة في قراءة وَجَدت دلالة... أعني أنّه سلسلة عمليّات عقليّة تنطوي على محاولة اكتشاف عناصر تكوينيّة لخطاب نقد تطبيقي بواسطة تفكيك هذا الخطاب»[60]

وتتكفل المهمَّة الثّالثة من مهام نقد النَّقد بدور التأصيل على المستوى المنهجي الخالص، حيث يصبح نقد النَّقد نوعا من أنواع المراجعة الشاملة التي تشتغل بالمفاهيم والتّصوّرات النَّقديَّة التي ينطلق منها الخطاب النَّقدي بصفتها مسلمات،ويرتبط ذلك بتأمل موضوع نقد النَّقد داخل سياقات إنتاج المعرفة النَّقديَّة، على نحو لا يفَصْلها عن مرجعياتها الفلسفية وعن المعرفة الإنسَانيَّة عامة، ولا يعزلها عن اللحظة التاريخيّة لإنتاجها[61].

إنَّ هذه المراجعة الإبستمولوجية الشاملة التي يقوم بها نقد النَّقد في دورها التأصيلي ،ستفضي حتما إلى محاولة الكشف عن مبادئ الممارسة النَّقديَّة على نحو يؤدي إلى تعميقها واستكمال إجراءاتها، وقد تفضي أيضا إلى الكشف عن عدم انسجام هذه المبادئ مع سياقات الممارسة التَّطبيقية مما يستدعي ضرورة تأسيس قطيعة ابستيمولوجية، تفَصْل بين مرحلة نقديَّة وأخرى« وبداية تيار واعد بالقياس إلى التيارات السائدة التي أصابها التكلس، والأدوار التي يقوم بها الوعي الضدي . عند هذا المستوى تبدأ من علاقة النَّقد الشارح [نقد النَّقد] بنفسه، مرورا بعلاقته بغيره، وانتهاء بعلاقته بما يبدُو واعدًا لم يتأصل بعد »[62] ومن النقَّاد الَّذين أفردوا حيزا لوظائف نقد النَّقد صراحة تارة، وأطلق عليها سمات قارئ ناقد النَّقد تارة ثانية، ومقومات نقد تارة ثالثة، النَّاقِد باقر جاسم مُحمَّد حيث يحصر جملة من الوظائف والمهام التي يضطلع بها نقد النَّقد ونوجزها فيمايلي[63] :

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

انجاز قراءة مزدوجة، تتناول النَّصّ النَّقدي من جهة، والنَّصّ الإبداعي من جهة ثانية، بغية الوقوف على سلامة منطلقات النَّقد وانسجام فرضيّاته، وتماسك آليّاته، ولتدعيم الأطروحات التي يقدّمها ناقد النَّقد. أيضا تفكيك المقولات النَّقديَّة للوقوف على الحمولات الأيديولوجيّة القابعة خلفها، والمتكتّمة في أصقاعها. والكشف عن دوافع النقَّاد في تبنّي منهج نقديّ دون سواه، وفضح الأنساق المضمرة، التي تعمل كمحدَّدات وموجّهات تتحكّم في صياغة وتوجيه القراءة النَّقديَّة. كذلك وظيفة الكشف عن صيرورة النَّقد الأدبيّ وتحوّلاته. إضافة إلى دِراسَة اللُّغة النَّقديَّة والوقوف على آلياتها، وتحديد خصوصيّاتها، باعتبارها لغة تنزع إلى مراعاة خصوصيّة موضوعها من ناحية، بقدر ما تحاول الوفاء للالتزامات المنهجيَّة والمعرفيّة لحقلها من ناحية ثانية.

أمّا الوَظِيفَة الأخيرة في نظر جاسم مُحمَّد فهي ذات طبيعة بيداغوجيّة وتتلخّص في عمل نقد النَّقد على إعادة تشكيل وعي القارئ، للتبصّر بما يتجاوز مسألة فهم النَّقد الأدبيّ، إلى الوعي بمسألة الكيفيّات التي ينهض عليها، وينبني بها الخطاب النَّقدي.

خاتمة

يتخذ خطاب نقد النقد من النقد موضوعا للدراسة، بمعنى أن المدونة التي يشتغل عليها هذا الخطاب هو النقد بنوعيه (النص الإبداعي، والنص النقدي) بهدف فحص الممارسة النقدية وتقييمها وتصحيحها .

لذا يعد نقد النقد تجربة نقدية شاقة وبالغة الصعوبة وصعوباتها تأتي من كونها لا تعتمد على نصوص إبداعية ذات فضاءات تعبيرية مباشرة أو غير مباشرة، وإنما تقوم على حوار مفتوح مع نظريات ووجهات نظر وثيقة الصلة بالأثر الأدبي وفيها رؤى نقدية موضوعية متماسكة تستند إلى قيم ومعايير ذات مرجعيات وأخرى رؤى خارجية وبعيدة عن كل مرجعية" ؛ فهو نوع من الحوار، من خلال محاورته للنص النقدي بكل ما يحمله من رؤى ووجهات نظر نقدية ذات صلة بالعمل الأدبي تحتكم إلى مرجعيات أو ربما ليس لها مرجعية وهنا تكمن صعوبته. وغاية هذا الخطاب هو مناقشة الأسس النظرية للمناهج النقدية الحداثية من جهة ومراجعتها وتعديلها. كاشفا سلامة مبادئها النظرية وأدواتها التحليلية وإجراءاتها التفسيرية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هوامش:

([1]) أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة:خليل أحمد خليل، منشورات عويد ات، بيروت/باريس، ط02، 2001، ج1، ص238 .

([2]) ستانلي هايمن: النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، ترجمة إحسان عباس ومحمد يوسف نجم، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر د.ت.،ج01، ص 09 .

([3]) محمد مندور: في الأدب والنقد، دار نهضة مصر للطباعة والنشر الفجالة، القاهرة، 1973، ص 10 .

([4]) محمود أمين العالم: توفيق الحكيم مفكراً وفناناً، دار شهدي للنشر القاهرة، 1985، ص 09 .

([5]) رولان بارت: نقد وحقيقة، ترجمة: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، 1994، ط 01، ص 109.

([6]) بختي بن عودة: ظاهرة الكتابة في النقد الجديد مقاربة تأويلية، دار صفحات للنشر والتوزيع، دمشق، سورية، 2013، ط01، ص 161 .

([7]) *Roland Barthes. Essais critiques. Paris: Seuil, Points, 1974, P 255 .*

([8]) عبد السّلام المسدّي: ما وراء اللغة بحث في الخلفيات المعرفية، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله للنشر، تونس، ص 140 .

([9]) حسام الخطيب: محاضرات في تطور الأدب الأوروبّي، مطبعة طربين دمشق، 1975، ص 369 .

([10]) محمد مصايف: دراسات في النقد والأدب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 16 .

([11]) المرجع نفسه، ص 26 .

([12]) محمد مصايف: دراسات في النقد والأدب، ص 28 .

([13]) عبد السّلام المسدّي: ما وراء اللغة بحث في الخلفيات المعرفية، ص 140 .

([14]) المرجع نفسه، ص 141 .

([15]) حسين مروة: دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي، مؤسسة الابحاث العربية، بيروت، 1986، ط 03، ص 22 .

([16]) محمد مندور: الأدب وفنونه، دار نهضة مصر للطباعة والنشر الفجالة، القاهرة، 1980، ص 137 .

([17]) عبد السّلام المسدّي: ما وراء اللغة بحث في الخلفيات المعرفية، ص 142 .

([18]) المرجع نفسه، ص 142 .

([19]) شكري عياد: مشكلة المنهج في النقد العربي المعاصر، مجلة فصول، مج 01، ع 03، أفريل 1981، ص 243.

([20]) المرجع نفسه، ص 143 .

([21]) م، ن، ص 143، 144 .

([22]) عبد السّلام المسدّي: ما وراء اللغة بحث في الخلفيات المعرفية، ص 144 .

([23]) المرجع نفسه، ص 144، 145 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

([24]) عبد السّلام المسدّي: في آليات النّقد الأدبي، دار الجنوب للنشر والتوزيع، تونس 1994، ص 10.

([25]) المرجع نفسه، ص 172 .

([26]) جهاد فاضل: أسئلة النقد (حوارات مع النقاد العرب)،الدار العربية للكتاب، بيروت، ص 109 ..

([27]) المرجع نفسه، ص 109 .

([28]) محمد لطفي اليوسفي : المتاهات والتّلاشي في النّقد والشّعر، دار سراس للنّشر، تونس 1992، ص 06، 07.

([29]) عبد السّلام المسدّي: في آليات النّقد الأدبي، ص 76 .

([30]) المرجع نفسه، ص 12 .

([31]) محمد الدغمومي: نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 44، مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء، ط 1، 1999، ص 52 .

([32]) نجوى الرياحي القسنطيني: في الوعي بمصطلح نقد النقد وعوامل ظهوره، مجلة عالم الفكر، مج 38، ع1، يوليو سبتمبر 2009، ص35.

([33]) جابر عصفور: قراءة التّراث النّقدي، مؤسسة عيبال للدراسات والنّشر، قبرص، ط 01، 1991، ص 17.

([34]) جابر عصفور: نظريات معاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998، ص 287.

([35]) باقر جاسم محمّد: نقد النّقد أم الميتانقد محاولة في تأصيل المفهوم، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج 37، ع 03، يناير – مارس، 2009، ص 119.

([36]) المرجع نفسه، ص 119 .

([37]) باقر جاسم محمّد: نقد النّقد أم الميتانقد محاولة في تأصيل المفهوم، ص 11، 112 .

([38]) باقر جاسم محمّد: نقد النّقد أم الميتانقد محاولة في تأصيل المفهوم، ص 118.

([39]) نجوى الرياحي القسنطيني: في الوعي بمصطلح نقد النقد وعوامل ظهوره، ص 35 .

([40]) حميد لحميداني: سحر الموضوع عن النقد الموضوعاتي في الرواية والشعر، منشورات دراسات سيميائية أدبية لسانية، الدار لبيضاء، المغرب، 1990، ص 11.

([41]) المرجع نفسه، ص 11.

([42]) باقر جاسم محمّد: نقد النّقد أم الميتانقد محاولة في تأصيل المفهوم، ص 108 .

([43]) المرجع نفسه، ص 110.

([44]) عبد السّلام المسدّي: في آليات النّقد الأدبي، ص 76 .

([45]) نبيل سليمان: مساهمة في نقد النقد الأدبي، دار الطلعة، بيروت، ط1، 1983، ص5 .

([46]) عبد السّلام المسدّي: في آليات النّقد الأدبي، ص 75 .

([47]) جابر عصفور: نظريات معاصرة، ص 267.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

([48]) المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

([49]) نجوى الرياحي القسنطيني: في الوعي بمصطلح نقد النقد وعوامل ظهوره ،ص 48، 49، 50 .

([50]) عبد السّلام المسدّي: النقد والحداثة، دار أمية، تونس، 1989، ص 28 .

([51]) جابر عصفور: نظريات معاصرة، ص 277.

([52]) المرجع نفسه، ص 271، 272 .

([53])محمد الدغمومي: نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، ص 113 .

([54]) نجوى الرياحي القسنطيني: في الوعي بمصطلح نقد النقد وعوامل ظهوره ،ص 35 .

([55]) المرجع نفسه، ص 38

([56]) جابر عصفور: نظريات معاصرة، ص 287، 288 ..

([57]) محمّد الدّغمومي: نقد النّقد، ص 166.

([58]) جابر عصفور: قراءة التّراث النقدي ص20 .

([59]) جابر عصفور: نظريات معاصرة، ص 292.

([60]) المرجع نفسه، ص 293 .

([61]) م، ن، ص 295، 296 .

([62]) جابر عصفور: نظريات معاصرة، ص 296.

([63]) باقر جاسم محمد: نقد النّقد أم الميتانقد محاولة في تأصيل المفهوم، ص 122، 123 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com